

دبلوماسية السلطان عبد الحميد الثاني دراسة وثائقية للعلاقات العثمانية البلجيكية

Diplomacy of sultan Abdulhamid: A documentary study of Ottoman – Belgian relations

جامعة يحيى فارس /المدينة مخبر الانتماء: مخبر الدراسات التاريخية المتوسطة عبر العصور	تاريخ الدولة العثمانية	مشكور ماريا - طالبة دكتوراه maria.mechkour.yc@univ-medea
جامعة يحيى فارس /المدينة	تاريخ حديث و معاصر	غربي الغالي – أستاذ التعليم العالي Kaligherbi@yahoo.fr
DOI :		

الإرسال: 2025/04/10 القبول: 2025/05/25 النشر: 2025/06/19

ملخص:

يعتبر القرن التاسع عشر منعطفًا مهمًا في الدبلوماسية العثمانية و العلاقات الدولية للدولة العثمانية ، لاسيما فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني بسبب الظروف الداخلية و الخارجية و عجزها عن المواجهة العسكرية ، و قد كانت علاقاتها بالدول الغربية الكبرى في هذه الفترة في إطار ما عرف بالمسألة الشرقية ، واجه فيها العثمانيون الأطماع الدولية ما دفع بالسلطان عبد الحميد لتمتين العلاقات مع الدول المحايدة مثل بلجيكا ، نحاول في هذه الدراسة الوقوف على محطات العلاقات العثمانية البلجيكية من جذورها إلى فترة عبد الحميد لتحليل مظاهرها و أهميتها بالنسبة للدولة العثمانية

الكلمات المفتاحية: الدولة العثمانية؛ السلطان عبد الحميد الثاني؛ الدبلوماسية؛ بلجيكا؛ العلاقات الدولية.

Abstract:

The 19th century is considered as a significant turning point in Ottoman diplomacy and foreign relations, particularly during the reign of sultan Abdulhamid the second due to internal and external circumstances and the empire's inability to engage in military confrontation during this period , Ottoman empire faced the of major western powers within the framework of what became known as the eastern question , this made sultan Abdulhamid seek to strengthen relations with neutral countries like Belgium .in this study we attempt to examine the key stages of Ottoman – Belgian relations, especially during the reign of sultan Abdulhamid, in order to analyze the aspect of the relationship and its significance for the ottoman empire

Keywords: Ottoman Empire; Belgium; Sultan Abdulhamid; International relations.

مقدمة:

تميزت العلاقات العثمانية الأوروبية خلال القرن التاسع عشر بالتوتر نتيجة الضعف الذي نخر في أساسات الدولة و تزايد الأطماع الأوروبية في أراضيها الشاسعة و تضارب مصالحهم الاستعمارية و التوسعية مع مصالحها، فبريطانيا التي احتلت الهند أصبح شغلها الشاغل تأمين الطرق التي تربطها بها، والتي تمر عبر الأراضي العثمانية فاستغلت حاجة العثمانيين لدعمها قبل توقيع معاهدة برلين، و كان ثمنه استيلائها على جزيرة قبرص التي وصفها دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا بأنها مفتاح آسيا الشرقية.

كما شهدت تلك الفترة احتلال بريطانيا لمصر التي كانت تابعة للدولة العثمانية ، و قد كانت سياستها قبل ذلك الحفاظ على تمامية أملاك الدولة العثمانية ليس حبا فيها و لكن تخوفا من التوسع الروسي و الفرنسي في المنطقة ، و بينما حكمت العلاقة العثمانية الروسية بالأطماع التوسعية لهذه الأخيرة للوصول إلى المياه الدافئة و انتزاع أهم المناطق الإستراتيجية حتى الأستانة و قد كان ذلك منذ عهد بطرس الأكبر و في وصيته لخلفائه و تميزت العلاقة بينهما بحرب دائمة تخللها فترات سلم ، فقد كانت العلاقة مع فرنسا متباينة بعض الشيء ، فأول ملامحها تمثلت في الصداقة التي جمعت السلطان سليمان القانوني مع فرانسوا الأول و بدء سياسة الامتيازات الأجنبية ، هذه الدولة التي ابتدأت علاقاتها صديقة للعثمانيين لم تساهم في تفتيت الدولة العثمانية خلال مرحلة المسألة الشرقية من خلال احتلال عدة أقاليم كالجزائر و تونس و دعم الحركات القومية فقط بل شكلت كذلك ملجأ للأحزاب الانفصالية مثل تركيا الفتاة ، التي اتخذ أعضائها من باريس مقرا لهم و أصدروا منها صحفهم التي كانت تندد بالسلطان عبد الحميد الثاني و تدعو للإطاحة به ، إضافة إلى ذلك عملت فرنسا على تغلغل ثقافتها في الدولة العثمانية من خلال المدارس الإرسالية و طباعة الصحف العثمانية باللغة الفرنسية كما تغلغلت من باب الإصلاحات و الامتيازات حتى أصبحت اللغة الفرنسية لغة النخبة المثقفة العثمانية.

أما بالنسبة لعلاقة العثمانيين مع بلجيكا فقد شكلت وضعا مختلفا، فهي ذلك البلد المحايد الحديث الاستقلال الذي لم يكن له هم إلا الاستفادة اقتصاديا في علاقاته الدولية .

نحاول في هذا البحث الوقوف على جذور الدبلوماسية العثمانية و خصائصها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، و العلاقات البلجيكية العثمانية في شتى المجالات من خلال وثائق أرشيف المفوضية العثمانية ببروكسل ، لتسليط الضوء على علاقة عثمانية أوروبية من نوع خاص تختلف كلياً عن العلاقات الأوروبية الأخرى و لا تقل أهمية عنها ، و لكنها لم تحظ بنفس اهتمام الباحثين

1. جذور الدبلوماسية العثمانية:

نشأت الدولة العثمانية ثغرية جهادية و اتسعت على نطاق واسع من أوروبا و آسيا ، و كانت في بداياتها قليلة العلاقات الدبلوماسية ، فقد كان تعاملها مع الدول على أساس دار الحرب و دار الصلح ، لترسم علاقاتهم الخارجية بأقلام الفقهاء و المفتين إضافة إلى سياستهم الدبلوماسية المتمثلة بالمعاملة بالمثل .

كما كانت تتم علاقاتها بالدول الأخرى عن طريق البعثات السفارية أو السفراء فوق العادة ، فكان السفير العثماني يرجع مباشرة بعد انتهاء المهمة التي أرسل لها و كان في الغالب يعد تقريراً يعرف بالسفرنامه ، يتضمن وصفاً دقيقاً لكل ما شاهده من استقباله إلى حين مغادرته ، و من أبرز الأمثلة على ذلك ، و إن كان في الفترة المتأخرة من الدولة العثمانية نجد سفارة محمد جلبي يرمي سيكز الذي عينه السلطان العثماني أحمد الثالث مبعوثاً إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر ، و قد دون محمد جلبي رحلته في تقرير قدمه إلى الصدر الأعظم إبراهيم باشا أورد فيه كل مشاهداته في رحلته و وصف مظاهر التقدم العلمي و المعماري و الفني بفرنسا (سيكز، 2020)

و قد تأثرت الدبلوماسية العثمانية بحركة الإصلاح التي جرت في الدولة منذ القرن الثامن عشر ، كما تأثرت بضعفها و هزائمه المتكررة ، و هي من كانت طول فترة ازدهارها تعتبر العالم الأوروبي عدواً لها " دار الحرب " ، و كانت ترى أن إقامة علاقات ثقافية و سياسية وطيبة معه يمس هيبتها ، و نتيجة لذلك مثلت قوتها و عقائدها الدينية أسباباً لعزلتها ، ما انعكس بشكل واضح على جميع مجالات الحياة فيها .

لقد انخفضت العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية إلى الحد الأدنى وقد نتج عن ذلك صعوبة تعرف العثمانيين على الحياة الداخلية في أوروبا، ما جعلها تتأخر في إدراك ما وصلت إليه من تخلف عنها حتى نهاية القرن الثامن عشر، لتضطر بعدها وتحت ضغوط ظروف السياسة الخارجية إلى الدخول في علاقات دبلوماسية دائمة مع الدول الأوروبية محققنا خطوة هامة على طريق قيام تعارف مشترك أوثق بين أوروبا والدولة العثمانية.

كان الجانب الدبلوماسي في الدولة العثمانية من أهم الجوانب التي مستها الحركة الإصلاحية فبعدما كان مجرد خدمة تابعة لمكتب الصدر الأعظم ، فقد تأسست وزارة الخارجية في عام 1836 م كهيكل مستقل و جزء مهم من جهاز الحكم العثماني ، و رغم أهمية العلاقات الدبلوماسية خلال الفترات السابقة ، إلا أنها اكتسبت أهمية خاصة خلال هذه الفترة بسبب تأثير التطورات الدولية و الهزائم المتكررة للدولة العثمانية في مواجهة القوى المجاورة مثل روسيا و النمسا ، ما جعلها تولي اهتماما خاصا بوزارة الخارجية ليصبح موقعها لا يقل عن وزارة العسكرية و المؤسسة الدينية أي مشيخة الإسلام (Talbot, 2014).

كان على الدولة العثمانية اللعب وفق قواعد لعبة السياسة العالمية لمواجهة ضغط القوى الكبرى و أطماعها التوسعية ، و كانت ذلك ما ميز دبلوماسية السلطان عبد الحميد الثاني ، فبعدما كانت قوتها العسكرية تضمن لها مكانتها الدولية ، لجأت إلى الدبلوماسية بعدما دخلت في عصر الضعف و باتت مهددة من القوى الكبرى ، فوجب عليها التقرب إليهم و مهادنتهم و التعرف عليهم بسبب عجزها عن مواجهتهم .

لعبت وزارة الخارجية دورا هاما في الإصلاحات و التحولات التي مرت بها الدولة العثمانية، و هو دور أعمق من دور الجيش في هذه المرحلة، خاصة بعد أن أصبح واضحا في نظر النخبة في الدولة أن هناك أمورا أكثر أهمية من البراعة العسكرية .

كان على الدولة العثمانية الصراع من أجل وجودها، مع اعترافها بقوة الجيوش المجاورة لها خاصة بعد تكرر هزائمها، فالجيش الروسي مثلا حطم دفاعاتها في بلغاريا ليعبر البلقان ويصل إلى بورغاس وأيدوس وفارنا، ويهدد أدرنة (Talbot, 2014).

2.1. دبلوماسية السلطان عبد الحميد الثاني :

لطالما وصف عصر السلطان عبد الحميد بالحكم الفردي من قبل مؤرخي الشرق و الغرب ، فالحال الذي وصلت إليه الدولة العثمانية من ضعف و تمزق و تكالب للدول الأجنبية عليها في ما عرف بالمسألة الشرقية ، إضافة إلى التكتلات و الحركات الانفصالية القومية و الأقليات جعلت عبد الحميد يلغي العمل بالدستور و يجمد نشاط مجلس المبعوثان و يدخل الدولة في حكم فردي دام ثلاثة و ثلاثين عاما منعا لانقسامها و تفككها .

لذلك فقد كانت الدبلوماسية العثمانية في عهده دبلوماسية السلطان ، و لدراستها لا بد من دراسة فكره الدبلوماسي من خلال تحليل آرائه و فكره ، فمن خلال قراءتنا المتمعة لمذكراته نلاحظ في المقام الأول حرصه على الوحدة الإسلامية ، فبعد انفصال العديد من الإيالات في البلقان ذات الغالبية المسيحية لم يبق للدولة العثمانية سوى سكانها المسلمون بنسبة كبيرة في المنطقة العربية و الأناضول ، فكان تركيز السلطان عبد الحميد هو ربط المسلمين و التفاهم حوله عن طريق استخدام مصطلح الخلافة و مد خطوط السكك الحديدية لتشمل المناطق العربية و الحرمين الشريفين و يرتبط الكل بعاصمة الخلافة ، إضافة إلى تمتين العلاقات مع العالم الإسلامي كان السلطان عبد الحميد الثاني شديد الحذر في التعامل مع الدول الغربية لعلمه بمخططاتها الرامية إلى تفكيك الأراضي العثمانية و الاستيلاء عليها بمختلف الطرق ، كتشجيع الحركات الانفصالية و دعم الأقليات الدينية و العرقية لفصلها عن الدولة ، و ما دامت الدولة غير قادرة على حماية أقاليمها و إخماد التمرد و الحركات الانفصالية بالقوة فقد لجأت مجبرة غير مختارة على ترجيح كفة الدبلوماسية ، و ضرب مصالح الدول الكبرى و السعي لعقد تحالفات جديدة للحفاظ على تمامية أملاكها ، فقد بدا واضحا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ميله إلى الألمان على حساب الفرنسيين ، التي كانت تربطهم علاقات و معاهدات دينية و تجارية منذ عهد الصداقة التي جمعت بين سليمان القانوني و فرانسوا الأول .

يذكر السلطان عن دبلوماسيته في مذكراته لجوءه إلى سياسة المهادنة و ضرب مصالح الدول بسبب عدم توفر الإمكانيات للدخول في حرب و حماية مصالح الدولة بالقوة ، فقد ذكر تحت عنوان "أي قوة كانت في يدي و لم أستخدمها للدفاع" أنه وجد من الخطر دخول حرب مجهولة النهاية في سبيل الدفاع عن حق سيادة لم يتبق منه غير الاسم (حرب، 1991) ، إشارة إلى فقد الدولة سيطرتها على كثير من أراضيها ، و فضلا عن

استرجاعها لم تكن تملك القوة للدفاع حتى عن تبعيتها الاسمية لها ، ما جعل سياسة السلطان عبد الحميد تنحى منحى الهدوء و التقرب ، و استغلال فرص النزاعات بين الدول الكبرى ، إضافة إلى إقامة علاقات مع العديد من البلدان المحايدة بعيدا عن الأعداء التقليديين لتحقيق مصالح الدولة العثمانية.

2. الجهاز القنصلي في العهد الحميدي

1.2. تنظيم القنصليات و توظيف القناصل :

ينقسم القناصل في الدولة العثمانية إلى قسمين:

موظفين قنصليين برواتب -هم القناصل العامون والقناصل ونائب القنصل - و موظفين شرفيين لا يتقاضون رواتب

يتم القبول في السلك الدبلوماسي نتيجة مسابقة تحت إشراف قنصلي من وزارة الشؤون الخارجية حيث يعينون بتقرير من هذه الأخيرة

يسمح بالترشح لهذه المسابقة للحائزين على الليسانس أو المتخرجين من الثانوية الإمبراطورية لغلطة سراي إضافة إلى الموظفين أو المسجلين كمؤقتين في وزارة الشؤون الخارجية

الحائزين على الليسانس أو البكالوريا من المدرسة المدنية الإمبراطورية يتم تعيينهم وفق قرار خاص مباشرة كسكرتير مهمات إمبراطورية أو قناصل دون الحاجة لاجتياز مسابقة

إقالة و عزل الموظفين يتم حسب الإرادة السنية (Règlement Organique pour Les Consulat Ottomans , 1884)

2.2 قصر يلديز و سفراء الدولة العثمانية

كان سفراء الدولة في الدول الأجنبية و الأقاليم العثمانية يرسلون تقاريرهم باستمرار إلى قصر يلديز قبل إرسالها إلى الباب العالي ، و كانت في دائرة الكتابات الخاصة بالقصر أقسام متعددة تهتم بالتقارير الواردة من الولاة و السفراء و القادة و الموظفين الخاصين ، الذين كانت لكل واحد منهم شفرة سرية خاصة بهم يتواصلون بها مع السلطان مباشرة .

كانت الرسائل المشفرة تصل إلى القصر بكم هائل كل يوم عن طريق التلغراف فيتولى كتاب دائرة الكتابات فك شفراتها و نقلها إلى السلطان مباشرة ، هذه الدائرة التي عملت كخليفة نحل مزدحمة بشكل متواصل طوال النهار حتى ساعات متأخرة من الليل ، و مع ذلك لم تفك جميع الشفرات لعددها المهول الذي لم يكن متعلقا بالسياسة الخارجية للدولة فقط ، بل تعلق كذلك بمعلومات استخباراتية عن الصحف الأجنبية المحظورة و ما تنشره على صفحاتها ، و تقارير عن تحركات الأشخاص المعارضين للحكم في الخارج ، ليتحول سفراء الدولة بسبب ذلك من ممثلين دبلوماسيين إلى أشباه المخبرين السريين (باشا، 2020)

3.1 العلاقات البلجيكية العثمانية :

نظرا لاتساع الرقعة الجغرافية العثمانية و ظروفها الاقتصادية و السياسية و تمتعها بإمكانيات تجارية بفضل تكامل السلع المتداولة ، فقد مثلت لدولة مثل بلجيكا التي تبحث بشدة عن أسواق جديدة شريكا تجاريا واعدا ، و حتى من الناحية السياسية كان من المهم أن يتم الاعتراف ببلجيكا من قبل أكبر عدد ممكن من الدول ، خاصة قبل الاستقلال النهائي في عام 1830 ، أما من وجهة نظر عثمانية فلم يكن لدى بلجيكا الكثير لتقدمه ، كما لم تكن هناك فائدة سياسية بسبب الحياد المفروض على بلجيكا في سياساتها الدولية ، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية بحاجة إلى حلفاء أقوياء في صراعها مع الدول الكبرى التي تهدد سلامة أراضيها ، و قد استغرق الأمر بعض الوقت ليدرك العثمانيون أن موقع بلجيكا الجغرافي و حيادها يتيحان فرصا كبيرة خاصة في مجال الاستخبارات (Anker, 2013)

بعد استقلال بلجيكا مباشرة في عام 1830 ، أدركت أهمية الدولة العثمانية دوليا و سياسيا و اقتصاديا ، فقد كانت هذه الأخيرة تتمتع بإمكانيات كبيرة كشريك تجاري للأمم الصناعية الشابة التي كانت تبحث باستمرار عن أسواق جديدة منذ انفصالها عن هولندا و مستعمراتها ، فقد اعتبرت دوائر الأعمال البلجيكية الدولة العثمانية سوقا واعدة للصادرات التي تعتمد عليها صناعاتها سريعة النمو ، فبعد شهرين فقط من اعتلاء ليوبولد الأول عرش بلجيكا في 21 يوليو 1831 ، نقل الصناعيين من لياج و فيرفيه عريضة إلى جلالتهم يحثون حكومتهم على إضفاء الطابع الرسمي على العلاقات مع الدولة العثمانية و إنشاء قنصلية بلجيكية في العاصمة (Reeck, 2000).

كانت بلجيكا قبل إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الدولة العثمانية و قبل إنشاء مفوضية في إسطنبول تستفيد كدولة أوروبية من الدخول في حماية دول أخرى ، فقد لجأت بالتناوب إلى الشبكات القنصلية البريطانية و الفرنسية في بلاد الشام . (Anker, 2013)

من خلال ذلك نلاحظ أن السباقين لتمتين العلاقات العثمانية البلجيكية كان الصناعيين البلجيكيون من خلال رفع مطالبهم لملك بلجيكا كما ورد في رسالتهم له

سيدي " لقد أحيا اعتلائكم عرش بلجيكا الآمال في أن نرى الصناعة تزدهر فكل الإجراءات التي اتخذتها جلالتمكم تدل على اهتمامكم الكبير بالتجارة التي تعاني من نقص المنافذ، لقد وعدتم سيدي ببذل كل الجهود الممكنة لتأمين معاهدات تجارية لبلدنا مع دول أوروبا و اليوم نطلب من جلالتمكم تنفيذ هذه الوعود، (Reeck, 2000)

إن علاقتنا التجارية مع تركيا لم تعاني من أي انتكاسات بسبب الثورة و لم يكن للدولة العثمانية أي مصلحة في منع تأسيس مملكة جديدة في وسط أوروبا ، ولكن حتى و لو كانت روابطنا راسخة فهناك المزيد من الأسباب لتأمين جميع المزايا للبلجيكيين الذين يتاجرون معها ، يجب أن يكون للقطاع التجاري لأمتنا ممثلون معتمدون من قبل حكومتكم لتوفير الضمانات ضد الإزعاجات التي قد تسببها القوى الأجنبية أو أعداء ازدهارنا ، القسطنطينية هي واحدة من أهم المدن التجارية التركية و نحن نتوجه إلى جلالتمكم للحصول على التمثيل من قبل قنصل في تلك المدينة ، كما نأخذ الحرية في تنوير اختيارك ، لا يوجد سوى بلجيكي واحد مقيم في القسطنطينية اسمه جان جوزيف ليموين و نعتقد أن تعيينه قنصلا في القسطنطينية سيكون خدمة للتجارة البلجيكية. (Reeck, 2000)

تعود جذور العلاقات البلجيكية العثمانية إلى القرن 19 حيث أقامت معها الدولة العثمانية علاقات منذ عام 1837 بعد 7 سنوات من إعلان هذه الأخيرة استقلالها، (servantie, 2016) و في هذا السياق تم توقيع معاهدات صداقة ، تجارة و ملاحية بين الطرفين في أعوام 1838 ، 1840 ، 1862 ، و مع توقيع هذه المعاهدات تمت بلجيكا تمثيلها الدبلوماسي في الدولة العثمانية بافتتاح قنصليات جديدة إضافة إلى القنصلية الرئيسية في إسطنبول كافتتاح قنصلية في بيروت ، و مع أن بلجيكا كانت مجرد بلد صغير

محايد إلا أن الدولة العثمانية لم تغفل مكانته كقوة صناعية ، لتفتتح أول مفوضية عثمانية في بروكسل في عام 1849 م لتصبح البعثة الدبلوماسية السادسة على مستوى أوروبا بعد باريس ، لندن ، فيينا ، برلين و أثينا .

كانت بلجيكا في حدود عام 1860 م موردا أساسيا للبضائع المصنعة و كذلك الأسلحة للدولة العثمانية ، إضافة إلى مشاركتها في عصرنة البنى التحتية حوالي نهاية القرن 19 و خلال القرن العشرين

و من أهم المواد التي صدرتها بلجيكا للدولة العثمانية حسب ما ورد في تقرير قنصل بلجيكا في إسطنبول للعام 1873 القائمة التالية:

القهوة	3000 كغ
خيوط قطنية	13,572
الحديد المطاوع	444,760 كغ
زجاج النوافذ	223,122 كغ
الكتب	74 كغ
الخمور	2,039 كغ
السخانات و المدافئ	900 كغ
أوراق	27806
الشموع	330,231 كغ
ماكينات الخياطة	261
أسلاك التلغراف	23,363
معدات السكك الحديدية	601,945
الزنك المدلفن	133.808
أسلحة	7.301

و قد ذكر القنصل أن هذه فقط تلك السلع التي وصلت مباشرة إلى إسطنبول بواسطة تجار بلجيكيين ، و يضيف أن هذه الإحصائيات لا تمثل الحجم الكلي للصادرات البلجيكية حيث أن العديد من البضائع تصل بطريقة غير مباشرة عبر سفن إنجليزية ، فلا يمكن إجراء جرد لها و لو كان تقريبا ، كما ينبغي إضافة عتاد سكك الحديد مقطورات سيارات سكك و حديد خام (officiel, 1872-1873).

إن إدراك البلدين لأهمية العلاقات الاقتصادية بينهما جعل علاقتهما الدبلوماسية مستقرة طوال القرن 19 هذه العلاقة التي تميزت بمزيج من الدبلوماسية الثقافية و المفاوضات القانونية(Houssine Alloul, 2016).

من إحدى الحلقات المهمة في العلاقات البلجيكية العثمانية هي اعتقال إدوارد جوريس البلجيكي الأناركي في عام 1905، بسبب محاولته الفاشلة لاغتيال السلطان عبد الحميد الثاني، و قد تسبب هذا الحادث في توتر دبلوماسي كبير، ما جعل الدبلوماسيين البلجيكيين متخوفين من انقطاع العلاقات بين البلدين، غير أن الضغط الدولي أدى إلى طلب رسمي لتسليم جوريس، و قد تم حل الصراع في النهاية بعفو السلطان عبد الحميد عنه. (Alloul, 2018) سهل الإطار القانوني الذي وضعته معاهدة 1838، التعاون بين البلدين في هذه القضية، فقد تعاون الخبراء القانونيون مع العلماء العثمانيين مما يعكس اهتماما متبادلا بالمعايير القانونية التي سلطت الضوء على تعقيدات الحقوق خارج الإقليم، ووضع الرعايا الأجانب في الإمبراطورية العثمانية.(Hanely, 2018)

كما لعبت التجارة كذلك دورا مهما، حيث كانت بلجيكا شريكا رئيسيا في المشهد الاقتصادي العثماني، فقد قدم العثمانيون سلعا قيمة للسوق الأوروبي رغم أن هذه العلاقات تأثرت بالظروف العسكرية و السياسية و بتوازن القوى المتغير في أوروبا خاصة أثناء أزمات البلقان، فبينما سعى العثمانيون لتعزيز صورتهم الإيجابية و تمتين علاقاتهم التجارية، فغالبا ما قوضت جهودهم بسبب الروايات الاستشراقية السائدة في وسائل الإعلام الأوروبية و التي استمرت رغم المبادرات الدبلوماسية

الطلبة العثمانيون والبعثات العلمية :

لقد كان عدد الطلبة العثمانيين الذين يدرسون في بلجيكا كثيرا، و معظمهم يدرس في مدرسة سان بلو الزراعية المشهورة بجودة تعليمها، و قد ذكر قنصل الدولة العثمانية أمين أرسلان في مذكراته عن اهتمامه بموضوع الطلبة المبتعثين، فقد كان يشجعهم لطلب علومهم في هذا المعهد الشهير حيث أنه استقدم من لبنان نجل أخيه و وضعه في تلك المدرسة التي أكمل بها جميع علومه الزراعية، و قد بلغ من عنايته بالطلبة المذكورين لاعتقاده الراسخ بحاجة الوطن الماسة إلى شبان يتلقون علومهم الصناعية في مدارس

أوروبا الراقية ، أنه كان يدعوا فئة منهم لتناول الطعام معه في دار القنصلية كل أحد ، ثم يتنزه معهم لتوطيد العلاقة ، نذكر من الطلاب الذين نجبوا في المدارس البلجيكية المرحوم خير الله خير الله الذي اشتهر بكتاباتة في جريدة الطان الباريسية الكبرى .

إن عدد الطلبة العثمانيين في بلجيكا يزيد عن الأربعين و لا يوجد منهم سوى أربعة من المسلمين و البقية من المسيحيين (أرسلان، 2022)

المفوضية الإمبراطورية في بروكسل:

في إطار العلاقات الدبلوماسية العثمانية خلال القرن التاسع عشر افتتحت الدولة العثمانية العديد من القنصليات و المفوضيات في دول أوروبا مثل فرنسا و بريطانيا و بلجيكا متمثلة في المفوضية الإمبراطورية في بروكسل ، و قد اضطلعت بالعديد من المهام نذكر من أهمها :

الاطلاع على الأوضاع الداخلية و الخارجية لدول أوروبا ، و مراقبة الصحف الأجنبية -التي كانت تعمل لتشويه صورة الدولة العثمانية و تشجيع التمرد و الحركات الانفصالية فيها- إضافة إلى رعاية مصالح الرعايا العثمانيين المقيمين ببلجيكا رغم كونهم قلة بالنسبة إلى دول أخرى .

1/ معرفة الدولة العثمانية للأوضاع الداخلية في بلجيكا :

من بين أهم الأسباب التي أدت إلى تغير السياسة الخارجية للدولة العثمانية خلال القرن 19 هو عجزها عن مواكبة القوة العسكرية و مواجهة الأطماع الغربية في ما عرف بالمسألة الشرقية ، فكان مهما بالنسبة لها معرفة الأوضاع الداخلية للدول الغربية لتستفيد منها و من تضارب المصالح لحماية أراضيها و مصالحها ، لذلك كان من بين أهم المهام التي اضطلعت بها المفوضية اطلاع الدولة بكافة الأوضاع الداخلية و الخارجية ، الإقليمية و الدولية كما نلاحظ رسالة من ألكسندر كارتيدوري أفندي قدم فيها تقريراً عن وفاة الفيكونت دي جريمبيري الوزير البلجيكي السابق في إسطنبول إضافة إلى إرفاقها بقصاصات صحفية حول إدانة الفيكونت من قبل الليبراليين (Letter from Alexander . kartiodori Efendi to Safwet pasha, 1879) ، كما بعث إتيان كارتيدوري للسيد سعيد

باشا في 01 أبريل 1886 باتفاقية تسليم المجرمين بين إسبانيا و بلجيكا (Letter from Ityenne Kartiodori to Said pasha, 1886).

2/ الرقابة على الصحف البلجيكية :

عرف عصر السلطان عبد الحميد الثاني بتكالب الدول الكبرى على تفتيت أملاكها ، و من أهم وسائلهم الصحافة التي كانت تروج وجهة نظرهم عن العثمانيين و تدفع الأقليات و القوميات إلى الانفصال عن الدولة ، ما نتج عنه سياسة السلطان عبد الحميد في فرض رقابة مشددة على الصحف و المؤلفات ما بلغ حد التطرف أحيانا ، فقد كتب سليم سركيس في كتابه غرائب المكتوبي أن أول ظهور للجرائد في الأراضي العثمانية كانت في سوريا ، و قد كانت الحرية المطلقة لجرائد بيروت من أول نشأتها إلى أن رأت الحكومة العثمانية كثرة جرائد الشعب السوري و ميله إلى المطالبة بحقوقه على صفحاتها ، و معلوم أن للحكومة العثمانية قوانين منشورة في الدستور الهمايوني و في جملتها قانون المطبوعات الذي يجب أن تجري عليه الجرائد و فيه تحديد الحرية المعتدلة و عقوبات مخالفتي القوانين ، و حين تنشر إحدى الجرائد ما تظنه الحكومة غير مناسب يرسل المدير إخطارا إلى صاحب امتياز الجريدة حيث أن ثلاثة إخطارات تؤدي إلى تعطيلها لمدة معينة (سركيس، 2021).

و قد برر السلطان عبد الحميد الثاني هذه الرقابة في مذكراته فكتب أن الصحف الأوروبية كانت تضع بصماتها على سيرته ، فقد كانت تكتب عنه بشكل دائم و تهاجمه و تلقبه بالسلطان الأحمر ، و تعرض الرأي العام العالمي ضده ، و تستغل القضايا الشائكة مثل القضية الأرمنية و غيرها (حرب، 1991).

بالنسبة لبلجيكا فقبل حرب القرم نادرا ما نشرت صحفها الرئيسية القليلة التي تضمنت تقارير إخبارية أجنبية جادة ، مقالات أصلية عن الشؤون العثمانية ، و بدلا من ذلك أعادت نشر أخبارها من الصحف الفرنسية و البريطانية و الألمانية و النمساوية (Houssine Alloul، 2016) ، مثل التقرير الذي أرسله مهرا أفندي عن الحادثة التي نشرتها جريدة الحرية الفرنسية ، و هي عبارة عن تصحيح لسوء الفهم الذي وقعت فيه الصحافة البلجيكية التي أثارت الجدل بتصريحاتها المسيئة عن العثمانيين حول الحادثة

المتعلقة بالمهندسين البلجيكيين في الإمبراطورية العثمانية ، بهدف تثبيط النشاط الصناعي البلجيكي في تركيا ، نشرت الصحيفة الفرنسية أن تصحيحا ورد في صحيفة Le petit messenger de Bruxelles (Letter from Mihrane Efendi)

كما نشرت مؤخرا في إحدى المجلات العسكرية البريطانية مقالة عن تحصين إسطنبول و قد كتب المقال ألماني يوضح فيه بالتفصيل إمكانية تجديد و توسيع و تطوير التحصين الحالي في إسطنبول الكبرى و أرفق رسالته بقصاصة من جلة الخدمة المتحدة ج 1 لمقال بعنوان التحصين الحالي للقسطنطينية. (Letter from)

و في نفس موضوع الصحف أرسل إتيان كارتيدوري أفندي إلى سعيد باشا في 02 سبتمبر عام 1888 حيث أرسل له مقالتين من صحيفة " لاغازيت " يناقشان جداله مع الكاردينال لافيغري ، فيذكر مؤلفهما أن أحد القساوسة الدومنيكان هو الذي اقترح على الإمبراطور شارل الخامس استبدال العبيد الأمريكيين بعبيد أفارقة ، كتب له كذلك أن ووتر جاء لزيارته و ناقش معه كتابا يكتبه عن الكاردينال لافيغري (Letter from Itienne . kartiodori Efendi to Said pasha, 1888)

كما يبدو جليا من خلال الوثائق جهود الدولة العثمانية لفرض الرقابة على ما ينشر في الصحافة العالمية خاصة ما يتعلق بالقضايا الحساسة السياسية و العسكرية مثل المقالات الذي كتبها صحفي يدعى نيكولايدس في جريدة المشرق حول موضوع مقاطعات الدولة العثمانية في الرومي ، و من المعروف أن فترة السلطان عبد الحميد الثاني شهدت اضطرابات سياسية و تمردا في هذه المنطقة ، كما أن الصحفي أبدا تحيزا ضد الدولة العثمانية ما حدا بتوفيق باشا إلى مراسلة الدولة العثمانية لمتابعة منشوراته و مراقبتها (Letter from Ahmed tevik pasha to raghib raif bey, 1907).

و في خضم جهود الدواة العثمانية لحفظ صورتها و السيطرة على منشورات الصحافة فقد أرسل توفيق مقالا يكتبه قسم الصحافة التابع له ليتم نشره في أبرز الصحف في بروكسل (Letter from tevik pasha, 1902).

3/ الاهتمام بقضايا الرعايا العثمانيين والطلبة المبتعثين المقيمين في بلجيكا :

من بين أهم وظائف القنصلية أو المفوضية هي رعاية شؤون الرعايا العثمانيين المقيمين في ذلك البلد و قد اضطلعت المفوضية العثمانية بذلك ، فقد ورد في الأرشيف الدبلوماسي وثيقة أرسلها جلال الدين إلى رفعت باشا في 04 سبتمبر 1909 ، حيث تقدم بطلب عائلة ميسراح العثمانية المقيمة في أنتويرب لإجراء تحقيق و تعويض عن الأضرار التي لحقت بمنزلهم و مكتبهم في إسطنبول ، و يعتقد أن الضرر قد حدث بأمر من مسؤولي المدينة ، حيث طلب أفراد العائلة من القنصل العثماني إرسال احتجاج إلى الحكومة العثمانية بخصوص هدم منزل عائلتهم في إسطنبول بتكليف من الدولة ، تم إرسال رسالة للقنصل العثماني في بلجيكا موقعة من طرف ألبرت ميسراح ، ماكس ميسراح موسى ميسراح نسيم ميسراح ، و هم رعايا عثمانيين مقيمون بأنتويرب و هم أصحاب أراضي و مباني واقعة في شارع الفنار بجانب الكنيسة البلغارية ، لديهم الوثائق الرسمية التي تثبت ملكيتهم للعقار

و قد تم هدم منزل لهم بأمر من البلدية دون سابق إنذار أو إشعار لإجراء إصلاحات ، لذلك فهم يطالبون بفتح تحقيق لمعرفة الأساس الذي تم به هدم منزلهم الذي كان مأهولا و أن مستأجره قد تم إلقاءهم في الشارع (Letter from Djelel eddine to Rifaat pasha, 1904).

أما بالنسبة للطلبة المبتعثين فقد ورد في مذكرات القنصل العثماني ببروكسل حرصه على مصالحهم و التقرب إليهم فقد كان يدعوهم كل أحد للعشاء معه في القنصلية كما كان يسعى في حل مشاكلهم ، حيث ورد اصطحابه لطلاب للتسجيل ، و استقبله رئيس الجامعة و قد كان تسجيلهما تعسر لأن الجامعة خاصة بالمسيحيين فقط و قد ظنهما مسلمين و هما مسيحيين ف الحقيقة ليوضح سوء الفهم و يلتحق الطالبان بصفهما (أرسلان، 2022).

خاتمة:

في دراستنا للعلاقات العثمانية البلجيكية في عهد السلطان عبد الحميد نستخلص منها عدة نقاط:

من أهمها اختلاف العلاقة الثنائية بين بلجيكا و الدولة العثمانية عن علاقات هذه الأخيرة مع الدول الأوروبية الأخرى ، و ذلك راجع لكون بلجيكا بلدا صغيرا حديث الاستقلال ليس

له طموحات استعمارية في الأراضي العثمانية ، إضافة إلى حيادها في الصراعات الأوروبية على النفوذ إلا أن علاقاتها مع العثمانيين تأثرت بتأرجح العلاقات الأوروبية العامة . إضافة إلى ذلك فدرائتنا للعلاقات الأوروبية العثمانية و ما عتراها من أطماع و محاولات لتفتيت الدولة يجعلنا نفهم سبب تكليف المفوضية بالرقابة على الصحف الأجنبية التي كانت حسب الأوروبيين محاولة لتلميع صورتها أمام الأجانب ، غير أن ذلك لم يكن السبب الأهم فالصحافة الأجنبية اضطلعت بدور محوري في المسألة الشرقية من دعم للتنظيمات المختلفة و المعارضة للخلافة و إثارة القوميات و تشجيع الحركات الانفصالية في الدولة العثمانية .

نلاحظ من بين مراسلات المفوضية و جود العديد من الوثائق التي تصف الأوضاع الداخلية لبلجيكا ، وذلك راجع لكون الدولة العثمانية التي أصبحت ضعيفة عسكريا في هذه الفترة إضافة إلى تكالب التنظيمات و الحركات الانفصالية و الأقليات الدينية من الداخل و الأطماع التوسعية للدول الكبرى من الخارج ، و مع هذه الظروف قرر السلطان عبد الحميد سياسة وحيدة لإطالة عمر الدولة العثمانية و هي مراقبة الدول و سياساتها عن كثب ، و محاولة تشتيتها و العمل على تضارب مصالحها ، ما استلزم تقصيا دقيقا للأوضاع الداخلية لها و مصالحها و خطواتها و مشاريعها لاستباق خطواتها و حماية الأراضي العثمانية من أطماعها و كان ذلك من بين أهم أدوار السفراء و القنصليات العثمانية ، إضافة إلى ذلك فقد اهتمت المفوضية بشؤون الرعايا العثمانيين المقيمين في بلجيكا كما وجد في الأرشيف ووثائق بخصوص الشؤون الداخلية للمفوضية و موظفيها .

قائمة المراجع:

باشا ت. (2020). ذكريات قصر يلديز. إسطنبول: دار الأمم للبحوث و الدراسات والوثائق.
جلبي يرمي سيكر م. . (2020). من إسطنبول إلى باريس رحلة محمد جلبي إلى فرنسا المعروف بيكرمي سيكر 1720_1721. أبو ظبي: دار السويدى للمشر و التوزيع .
سركيس س. . (2021). غرائب المكتوبى. المملكة المتحدة : مؤسسة هنداوى .
السلطان ع. ا. ا. . & حرب م. . (1991). مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني. دمشق : دار القلم .

Alloul, H. (2018). Belgium and the Hamidian Regime ; or the Antinomies of Small State Diplomacy. In E. Eldem, H. De Smaele, & H. Alloul, To kill a Sultan (pp. 129-161). London: palgrave Macmillan.

Extraterritorial Prosecution, the Late Capitulation , and the New International Lawyers2018LondonPalgrave Macmillan

Letter from Ahmed tevik pasha to raghib raif bey(HR-SYS-227-48) IstanbulBOA

Letter from Alexander kartiodori Efendi to Safwet pashalstanbulBasbakanlik osmanli Arsivi (hereafter BOA) . Hariciye Nezareti collection (hereafter HR)

Letter from Djelel eddine to Rifaat pasha. (1904, september 04). (HR-H-246-12) . Istanbul, BOA.

Letter from Itienne kartiodori Efendi to Said pasha(HR-SYS-225-29 IstanbulBOA

Letter from Ityenne Kartiodori to Said pasha(HR-SYS-224-1) IstanbulBOA

Letter from Mihrane Efendi. (s.d.). (HR-SYS-227-18) . Istanbul: BOA.

Letter from Rustum pasha to Said pasha(HR-SYS-223-8) IstanbulBOA

Letter from tevik pasha(HR-SYS-227-24) IstanbulBOA

Ottoman Imperial Diplomaacy: A political , social and Cultural History2014Bulletin of the school of Oriental and African studies 773584-586

please deny these manifestly false reports : Ottoman Diplomats and the press in Belgium (1850-1914)2016International journal of Middle east studies 482267-292

Recuell consulaire Belge Année 1872-18731872-1873Bruxelles

Reeck, M. V. (2000). Belgium in the Ottoman Capital From the early steps to " la belle Epoque". Istanbul: the consulate general of Belgium .

Règlement Organique pour Les Consulat
Ottomans 1884 constantinople Imprimerie Osmani

Small power diplomacy and commerce : Belgium and the Ottoman Empire
during the reign of Leopold 1 (1831-1865) 2013 Istanbul The Isis Press

Turkish –Belgian Relation and their importance from the Eu
prespective 2016 IKV BRIEF 421-9